

## ساعة في البقيع \*

### للأستاذ علي الطنطاوي

خرجنا اليه في سفرة الطفّل ، وقد سكرت الريح ، وسجا المساء . وكان اليوم رَوْحاً ، فتابوا زنا أزقة المدينة الضيقة اللتوية وبدا لنا سور البقيع الهائل الذي أقاموه في وجه مدينة الموت كيلا يتطلع مدينة الحياة ... حتى هبّت الرياح لواقع ، فأنشأت سحاباً ما لبث أن اكفهر وتغلخطخ وعمّ السماء ، فأظلمت الأرض واسودت ، وعادت كثيفة تملأ النفس غمماً . وكنا قد بلغنا البقيع ، فرأيتُه موحشاً مظلماً رهيباً :

« قام الأعماق خاوي الخترق »

وشمت منه رائحة الموت ، فتهيبت دخوله في هذه الأمسية ، وأزيمت العودة ، ولكن صاحبي أصرّ علىّ وشجني ، ثم أخذ ييدى فاذا أنوار السور ، وإذا ساحة فسيحة ، ممتدة الجوانب ، مظلمة الأرجاء ، ساكنة سكّون الموت ، ليس فيها بناء ولا قبة ولا تابوت ، كأنما لم يسمح لبشر أن ينصب في حرم الموت مقام الحياة ، أو يدنس دار البقاء بشارات الفناء ... فأغمضت عيني ، وشدت على ذراع صاحبي ، وجعلت أدنو منه لما أجد من الوحشة وأحسن من الجزع ، وما عهدتني من قبل أعرف الخوف أو أدري ما الجزع ، فسار بي يقودني حتى هبط بي غوراً عميقاً ، حال بيني وبين الفناء ، وحجب عني السور الذي كنت أراه فأنس برؤيته ، وأذكر أنها لانزال وزاده دنيا حافلة بالنور والجمال والحياة ... فلم أعد أرى شيئاً ، واعمت من خيالي كل صورة ، وطارت من راسي كل فكرة ، إلا فكرة الفناء ، وصورة الموت ، وأحسست وأنا أهبطه أني هابط إلى القبر ! وخيل لي أن أشباح الموتى ترقص من حولي ، وتدنو مني وتمسني وهمّ بئاني ، فتقف كل شعرة في جسّمي ، ويزداد قلبي خفقاناً ، وتتخاذل ركبتي حتى أمم بالسقوط ، ويطنّ في أذني صوت رهيب مستطيل يلقي في روعي أنه نشيد الفناء ... وكان كل ما يحفّ بي مخيفاً

\* البقيع مقبرة أهل المدينة ، وقد كنت هذا الفصل في المدينة المنورة ، وهو من فصول كتاب « الصحراء » الذي سيصدر قريباً في وصف رحلة الوفد السورى إلى الحجاز

رائعاً ، فالقبور ، والظلام الشامل ، والسكون العميق ، والسماء التي لا تطرف فيها من النجم عين ، والمكان الذي لا تبلفه نسمة من نسبات الحياة ، وجلال الموت ، كل أولئك كان يخيفني ، ويصب في قلبي الوحشة والفرع ... ثم صاحت بومة على سور المقبرة ... فاستمسكت بصاحبي وقلت : عد ويحك !

قال : كيف أعود وقد بدأت الزيارة ... هذا قبر عثمان ! وكان ذكر عثمان قد رجح إلىّ نفسي ، فنظرت فلم أجد قبراً ولا شيئاً يشبه القبر ، وإنما وجدت حجارة صغيرة قد صفت على وجه الأرض ، وفرشت من حولها رمال حمراء ناعمة ، كحوض أعدت لزرع فيه الورود ، فقلت :

— أنهرأ بي يا ...

قال : لا والله . ولكني أقول الحق . هذا قبر عثمان قلت : يا لسخرية القدر ! أتحرون موضع قبر عثمان أمير المؤمنين لزرعوا فيه الورود ؟

قال : أى ورود ؟ كل القبور هكذا ...

قلت : لملك أخطأت القبر . اذهب فاقراً اسمه

قال : قد طمست الأسماء ، فما عليه من اسم . ولكن ثق أنه هو . أعرفه من هذه الفضاة !

وأشار إلى غضاة قريبة منه لا أدري كيف دخلت حرم الموت فأنست بها . وذاكرني الفضي دنيا مليئة بالصور ، مترعة بالحياة نفت عنى بعض ما أنافيه من الغربة والجزع ، فقلت :

— وكيف تعرف غيره من القبور ؟

قال : ما أعرف إلا قبور آل البيت ، وقد كنت أعرف قبر مالك فاختلط علىّ ونسيتّه ، ولكن يعرفه إذا شئت (الممّ سمّدت) خادم المقبرة ، وبعض الشيوخ من أهل المدينة ...

\*\*\*

وانقطع الحديث فقد استشرى البرق واثلق ، ورددت السماء ، ثم هطلت بقطر بُمّاق قشر وجه الأرض . وجعل فيها برّكاً وأنهاراً ، فلم نجد شيئاً يعصمنا من الماء ناوى إليه ، إلا هذه الفضاة وما تكاد تمصمنا ... والمطر في الحجاز أمّجيب شيء رأيتّه : فيبنا الشمس طالمة ، والأرض مُتسمّرة ، واليوم كحدر عصب ، إذا السماء قد تلبنت بالفيوم ، ودوت بالزعد ، والأمطار

أيها البقيع أن يأتي الجبل الجديد ، فيفتش عن هذه القبور فلا يجدها ، فيقول : هاتوا المول ، هاتوا الأحجار . . . ابنا هنا ملعباً ! لا نجد في المدينة خيراً من هذه الساحة ، إنها لا تُترك أرض سدى ! ثم بينهم يتقاذفون الكرة ، إذا بهم يخطئون فيتقاذفون واحدة من هذه الجماجم . . .

أنسيت أيها البقيع أن كل مسلم يحس أنه يملك في هؤلاء الأبطال ملكاً ، وأن هذا الرقات ليس من حقتك وحدك ، ولكنه حق لكل مسلم ولد أو يولد إلى يوم القيامة . . . وأنتك إن طمست هذه الأسماء ، حتى يجهلها السلون ، أسأت إلى كل المسلمين ؟

أنسيت أن أضيافك عظام البشر ، أفتستحق العظمة هذا الأهل الشائن ، وهذا النسيان الخزي ، أم ذنبهم أنهم لم يكونوا فرنجية ولا انكليز ؟ أف يكون الباتيون لأبنائه أوفى منك لأبنائك أيها البقيع ؟

إنه لم ينقص من مجدهم أنها لم تشيد لهم القبور ، ولم تنقش أسماءهم على صفايح الحجر ، وحسبهم أنهم شيدوا مجداً وبنوا أمة وكتبوا تاريخاً ، فإذا نسي التاريخ أبطاله ومنشئيه ، فقيدهما نسي التاريخ الأبطال ! وهل ذكر التاريخ أولئك الجنود الذين سقوا الأرض بدمائهم حتى أنبتت مجد نابليون فانتطفه ؟.. هل ذكر أولئك القصاص الذين أهدوا إلى شكسبير قصصهم الرائعة فرواها ؟ هل ذكر أولئك الملاحين الذين غامروا بأرواحهم حتى أوصلوا كولومب إلى الساحل الجديد وأمسكوا بيده حتى نزل إليه ؟ .. ماذا كان نابليون وشكسبير وكولومب لولا أولئك الأبطال المجهولون الذين نسبهم التاريخ ؟

لا بأس أيها البقيع فإن البطل الحق هو الذي لا يعرفه أحد !

\*\*\*

وازداد الرعد قرقرةً وهزيماً ، وعمق البرق وتكلم ، وأعدت السماء وجادت ، وعصفت الريح وأتجت (١) وجنت الدنيا جنونها ، فنظرت فإذا السيل قد جرف قبر عثمان فلم يبق له من أثر .. فقلت : اطبق يا سما ، وتشتق يا أرض ، وتصدمي يا جبال ... إن من ملكوا العالم لا يجدون القبور ....

على الطنطاري

(١) تصدنا اختيار هذه الألفاظ لطابق الوصف الموصوف

قد نزلت كأفواه القرب ، واليوم قد عاد قرأ بارداً ، ثم لا تلبث حتى تنجلي السحب ، وتصحو السماء ، فتنظر فإذا الأرض قد بدلت غير الأرض ، وإذا السيول قد جرفت البيوت ، وخربت الطرق ، وطمست المعالم ، كما يطمس سطر سال عليه الماء ...

ولقد ظنناها سحابة صيف ولكنها لم تنقش ، ولم تزد الأمطار إلا شدةً ونهطاً ، ولم يزد الرعد إلا قعممةً وقصيفاً ، حتى كأن الدنيا بجنونة ، عاودتها نوبتها ، فهي تصرخ وتقفز وتمزق ثوبها بيدها ، وتشق سنجرتها بصراخها . . . يئد أني لم أكن أحفل بالبرد ولا بالمطر ، ولم أكن أذكر الخوف ولا الجزع ، ولم أكن أفكر إلا في هؤلاء الأبطال الذين فتحوا الدنيا ، وملكوا العالم ، ثم ضنوا عليهم بقبر يعرف ، أو اسم يقرأ ، أفكر في هؤلاء العطاء . . .

... كم انحنيت تحت أقدامهم هام الجلاميد العشم حتى وطئوها ، كم استكانت لهم هذه الرمال الهائلة حتى قطعوها ، كم دانت لهم البادية المهلكة حتى جابوها ، ليخرجوا منها فاتحين إلى أرض الرياض والعيون ، فييلفوها رسالة الصحراء ، وينشروا فيها دين الصحراء ! لقد انتصروا على البادية المهلكة ، والشمس المحرقة ، والجوع القاتل ، والمعطش الميت ، والمدو الجبار ، والجيش الجرار ، ثم انتصر عليهم البقيع ، فإذا هم مستقرون في أحشائه ، وإذا هم قد ناموا فيها إلى الأبد ، فان يذهبوا إلى الحرم ليقبوا الصلاة ، ولن يمتنعوا ظهور جياهم ليمشوا إلى الجهاد ، ولن يحملوا الراية الإسلامية لينصبوها على أقصى العالم ، ولن تستقبلهم زوجاتهم وأولادهم إذا عادوا ظافرين ، بل هم لا يرون طلعة الشمس ولا يصرون صفحة القمر ، ولا يسرون على وجه الأرض . . .

انتصرت أيها البقيع ، فوافيت ولا أنصفت . . . جاءك الأبطال الذين فتحوا الدنيا ، ونشروا راية العدل على الأرض ، وأضاءوا طريق الهدى للناس ، ليستريحوا في أرجائك ، ويناموا في حماك ، فحرمهم قبرا يعرف لهم ، وحجراً تكتب عليه أسماءهم ما يزيد منك أن تنقش على قبورهم آيات التمجيل والثناء . فإن لهم من أسماهم الكبيرة ، غنية عن كل تبجيل وثناء (١) ، لكننا نريد ألا ننسى هذه الأسماء

سيموت الشيوخ الذين يعرفون هذه القبور ، أفيرضيك

(١) ولا يزيد أن تمام لهم هذه المقامات التي ترتكب عندها أنواع المعاصي ووثق فيها المنكر ، فمن من أشد الناس إنكاراً لهذا